

الاتجاهات الحديثة في الثقافة الأوردية

للدكتور عمر حليق

لعل أبرز الظواهر في حاضر الحياة الفكرية في الباكستان هو المكوف عن التقليد الأعمى والانسياق التام في تيارات الثقافة الغربية التي كانت تهيم على الحياة العقلية في القارة الهندية قبل تقسيمها إلى هند وباكستان

وجدير بالذكر أن أثر الثقافة الغربية مع الإنتاج الفكري في القارة الهندية لم يكن في جلته سيئاً النتائج . فقد أولد هذا الأثر اتجاهات ملحوظة لتوجيه الحياة العقلية هناك على أساس مناهج البحث العلمي الحديث . بحيث أخذ إنتاج الهند والباكستان يتميز بطابع الدقة وعمق الفكرة التي يلمسها كل من أتيح له الاطلاع على البحوث القيمة^(١) التي عاجلت مشاكل الساعة سواء في الدراسات العلمية للتراث الإسلامي والهندوس أو في الشعر والنثر الأوردى ، أو في الإنتاج الفني الذي أخذ ينمو هناك نمواً سليماً

ولكن الظاهرة الفريدة في حاضر الثقافة الأوردية هي انفراد حفظة الثقافة في الباكستان — إثر ميلاد هذه الدولة الإسلامية — في المكوف عن جمل الحياة العقلية والأدبية والفنية هناك صورة مشوهة للثقافة الغربية ومدى سطحي العمق للتيارات الأدبية والفنية التي تتسرب إلى حاضر الثقافات الآسيوية من أوروبا والعالم الجديد

قد شمر حفظة الثقافة الأوردية في الباكستان أن الانسياق في التنزى بالصورة التوحمة للثقافة الغربية قد أخذ يولد في الأوساط الثقافية هناك لونا من التشوش قد يؤدي إلى توجيه الحياة الفكرية في هذه الدولة الجديدة على نمط لا يمتشى مع روائع المجتمع الباكستاني وتراثه الإسلامي وقضاياه السياسية ومشاكله الاقتصادية والاجتماعية

هنا لمعال مهتد إلى مادة تكريم بتوفيرا لاكتاب مكتب الاستعلامات الباكستاني في لاهور

ونمة أمر آخر دفع الباكستانيين إلى مراقبة تيارات الثقافة الغربية التسرية إلى مجتمهم مراقبة نبهة ... ذلك هو ازدياد الشعوب إيماناً بأن دعائم الفكر الغربي لم تستطع أن تثبت صلاحها لتوطيد الاستقرار في الغرب نفسه وفي المجتمع العالمي الأكبر ومما فرض على حفظة الثقافة الأوردية في الباكستان هذا التحفظ في نشاطهم التوجيهي .. الأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية الطارئة التي جاءت في أعقاب التقسيم ، وتمرض الدولة الباكستانية الجديدة إلى مشاكل إدارية واجتماعية نشأت عن طبيعة التكوين الجغرافي لهذه الدولة الناشئة ، عن تشرد الملايين من المسلمين المهنود نتيجة للصراع الطائفي الذي صاحب التقسيم ، وزراع كشمير وقضايا الحدود ومياه الري المشتركة بين الهند والباكستان وما إلى ذلك من القضايا الفرعية التي لها صلة مباشرة بوضعية الباكستان الإقليمية

وفي مثل هذا الجو وجد الكتاب والشراء الباكستانيون أنفسهم منساقين إلى معالجة المشاكل الوثيقة الصلة بحياتهم اليومية ، وأن يكتبوا وينظموا في أمور وأحداث هي من صلب الأحوال والأوضاع التي تكثف دولتهم ومجتمهم الجديد ومن الاتجاهات المتولدة عن هذا المناخ العقلي الجديد ما ألم باللغة الأوردية في السنوات الأخيرة من تطور . فالمعروف أن نشوء اللغة الأوردية جاء نتيجة لأثر اللغتين الفارسية والعربية على اللهجات الأصلية في شبه القارة الهندية (وعلى الأخص في السند والبنجاب) عندما خضعت للحكم الإسلامي ، فأصبحت الفارسية والعربية بمثابة لغة الاشتقاق للغة الأوردية التي تطورت بدورها فوطلت لنفسها استقلالاً لنمواً سليماً

ويبدو أن اللغة الأوردية في الباكستان أخفت اليوم تقوم بنفس الدور الذي قامت به اللغتان العربية والفارسية منذ قرون . فبعد أن توطد الاستقلال الثقافي للغة الأوردية ، وبعد أن تثبت الكيان لدولة الباكستان أخفت الأوردية تؤثر تأثيراً مباشراً في اللهجات المحلية في القطاعات التي تؤلف الأمة الباكستانية

فقطاعات البنجاب مثلاً تقليد عريق في الأدب مدون باللغة البنجابية — تقليد أصوله في التراث والثقافة الإسلامية التي عاش عليها شعب البنجاب حقبة من الزمن . وتتمتاز اللغة البنجابية

بغزاتها في الإنتاج الأدبي إجمالاً ، في الشعر العربي والأدب الشعبي على وجه الخصوص . وللناطق الشمالية الغربية من الباكستان لنتها المحلية الخاصة — لغة البوشنو — وللتراث الإسلامي في تلك المناطق دعائم متينة

ولقد وجدنا أن تيارات الثقافة الغربية كانت قبل تقسيم شبه القارة الهندية تحتاج الحياة العقلية هناك ، وأن ذبول التقسيم قد فرضت على المثقفين الباكستانيين رغبة ملحة في صيانة حياتهم العقلية من عناصر التشويش في التقليد والانسياق الأعمى ، وفي توجيه هذه الحياة نحو مشا كل الساعة والظروف والأوضاع الطارئة . ولذلك لم يكن لهؤلاء المثقفين بد من أن يعمنوا في صيانة الدعائم التي يعيش عليها مجتمعهم — لا في مجال السياسة فحسب ، بل في أصول الفكر وعناصر الثقافة العامة . فأخذوا يعملون في يقظة ونباهة على صيانة الثقافة الأوردية من التيارات الضارة التي كانت تعرض لها — سواء جاءت هذه التيارات من الغرب البعيد أم من الهند القريبة . وهذه النزعة « القومية » في حاضر الثقافة الأوردية جاءت نتيجة لموامل منطقية فرضتها طبيعة الأوضاع وفلسفة الحكم وأسس التطور الاجتماعي الذي يعمل أولو الأمر في الباكستان على تحقيقه بوحى من الإسلام ورائه . ولذلك لم يجد حفظ الثقافة الأوردية في الباكستان صعوبة في تعميمها — على صورتها الجديدة — في المناطق والقطاعات التي في لنتها المحلية قسط واف من التراث الإسلامي — كما هو الحال في لغتي البنجاب والبوشنو

ولكى يضمن الباكستانيون اطراد النمو في نهضتهم اللغوية الجديدة — بعد أن اختاروا المكوف عن التأثر بالاستمارة المشوهة من ثقافات الهندوس والأوروبيين والأمريكان — انجبروا إلى تعزيز الروابط اللغوية والثقافية مع الشعوب الإسلامية الأخرى ، وما رغبتهم في إحلال اللغة العربية مكانة رفيعة في الباكستان إلا تحقيقاً لهذا النحو وتعزيزاً لهذه المهمة

وكان من نتائج هذا التنظيم الفكرى أن أخذ الأدب الأوردى في الباكستان ينمو ويزدهر فلا يقتصر على إحياء الذخائر القديمة في قالب مجد أو أن يعالج الحياة الجديدة في إطار الإبداع الفنى ، بل أخذ يستمد الإيحاء من التراث الأدبي والفنى العريق

الكامن في الثقافات المحلية التي تعيش عليها الجماعات ذوات التقاليد الاجتماعية الراهية التي تؤلف قطاعات الباكستان الشرقية والشمالية والغربية . فقد ترجمت عشرات من مقطوعات النثر والنظم من هذه اللغات المحلية إلى اللغة الأوردية ، وأخذت الأوردية تنفذ بالصورة الفنية الرقيقة التي خلدها شعراء الفزل والأدب الشعبي في البنجاب ، وقصائد البطولة والرجولة التي يتميز بها شعراء البوشنو — بطولة مستمدة من طبيعة الإقليم وأسلوب الحياة الذى يسود في مناطق الحدود في الشمال والشمال الغربى

وعلى الرغم من تحفظ المثقفين الباكستانيين في تأثرهم بالتيارات الفكرية الأجنبية الخاطئة ، فإن إقبالهم على ترجمة روائع الآداب العالية تشهد لهم بحسن الاختيار وسلامة الذوق

أما طابع الأدب الأوردى الجديد فهو اليوم يتميز باتجاه عام لمعالجة شؤون الناس والحياة في جلد وتعمق ، وفي إطار العناصر الفنية المكتسبة من هذا التمازج الجديد بين تراث الثقافة الأوردية والتخيرة الفنية من التقاليد الطريقة الراهية للمناطق التي تؤلف المجتمع الباكستانى

وهذا الطابع الجدى ملموس في فن القصة القصيرة والقصة الطويلة ، وفي الشعر والتقد الأدبى

وقد آتى على الأدب الأوردى حين كان العنصر الرئيسى المهيمن على إنتاجه يكاد يقتصر على مشاكل اللاجئين والصراع الطائفى الذى عصفت بالناس وبمواطفهم في ذبول التقسيم . ويبدو أن نجاح أولى الأمر والشعب في الباكستان في احتضان هؤلاء الفكريين والتخفيف من محنتهم ، قد ترك أثره في انطباعات الأدباء والشعراء ، فأصبح نظرتهم إلى هذه المحنة أقل غزارة مما كان عليه قبل بضع سنوات

أما اليوم فقد تطور فن القصة وعلى الأخص القصة القصيرة في الباكستان على يد نفر من الكتاب الناشئين الذين نافسوا قدامى الكتاب منافسة شديدة . طعموا الأدب الأوردى بنوع سليم من القصة التي تحمل في ثناياها أشياء أهم من التسليه أو إثارة الغرائز وفي مجال القصة الطويلة لا يختلف الباكستانيون عن غيرهم في معظم الشعوب الشرقية التي لم يرسخ فيها هذا النوع من الإنتاج ، فالأدب الأوردى كثير من الآداب الشرقية الرقيقة ليس في

جديدة على نحو ما يمارسه بعض الشعراء المحدثين في حاضر الأدب العربي ، وازداد النظم بالشعر المنشور إلا أن كثيرا من أئمة العروض في الأدب الأوردي لا يزالون يلجؤون إلى جزالة اللفظ ورسالة التعبير ليسبقوا على الشعر لونا من القوة . وللشعر الرمزي في الباكستان أتباع ومريدون يفرمون بالإيجاز في الكلم والبراعة في اختياره على نحو ما تتطلبه الرمزية

وقد تزعم الأدب البنغالي الكبير « نصر الإسلام » الثورة على مدرسة طاغور ، فقد لس فيها رخاوة وخنوعا لا يتماشى مع مطالب الحياة العقلية الإسلامية ، ودعا نصر الإسلام إلى أن تكون صلة الأدب بالحياة السياسية والاجتماعية وثيقة متينة ، ودواوين هذا الشاعر البنغالي تطفح بالقوة والنظرة المميقة فضلا عن جزالة اللفظ ورقة الموسيقى ومهارة الصياغة وبلاغة التعبير

وفي الشعراء المجددين في حاضر الأدب الباكستاني شاب يجمع في القصيد بين الروعة الفنية والنظرة الواقعية للصور والمواضيع التي يعالجها في شعره — هذا الشاعر هو « عبد الحسين » الذي يمتاز نظمه بالتمايز المستحدثة والنغمة الرقيقة والبلاغة المبسطة التي قال عنها ابن المقفع « إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » والتجديد في الأدب الأوردي في شرق الباكستان وغربها لم يعتمد القضاء على تراث الماضي والخبرة النافعة الكامنة فيه ، بل إن النهضة الفكرية إجمالا توخت استيعاء التراث القديم والكشف عن نقائسه . وهذا الاتجاه ملموس في البنغال الشرقية أكثر منه في المناطق الأخرى

وحركة بث الذخائر الأدبية القديمة لا يقتصر على تراث الإسلام الذي اندثر تحت سيادة الهندوس الثقافية في تلك البقاع الإسلامية بل شمل أكثر تنائس الأدب الشعبي الذي سبق انتشار الإسلام . وقد تخطى هذا الإحياء حدود نشر القديم وتبويبه وتحريمه في لغة الجليل فطمت اللغة الأوردية بأكثر من ألفين وخمسمائة كلمة جديدة من مشتقات عربية وفارسية وجدت سبيلها إلى الأدب الشعبي القديم عن طريق الإسلام ، وارتأتى حفظة الثقافة الأوردية في الباكستان إحياءها وتنقية النهضة الأدبية بها

وإذا جاز للباحث عن حاضر هذه النهضة الثقافية في

في تراثه ذخيرة من القصص الطويلة على النحو الذي عرفته الآداب الغربية ، ولا يزال إنتاج القصص الطويلة في الباكستان مبعثر الجهد ضئيل القيمة في الناحية العددية والفنية

أما الشعر فقد أخذ يقتدى بألوان العروض والمواضيع التي تعالج عادة في الشعر الأوردي الحديث وأخذ الغزل القديم يفقد مكان الصدارة التي كان يحتلها في الحياة الأدبية وبعض الشعراء الناشئون يتطرقون إلى الغزل التقليدي في مسهل حياتهم الأدبية إلا أن قرضهم للشعر يتطور فيما بعد ويتخذ طابع التجديد في أبواب العروض وفي مواضيع النظم وفي الصور الفنية التي تحتويها المقائد

أما أدب المقال والنقد الأدبي والدراسات التحليلية فيزعمها ثلاثة من فطاحل الأدباء : مولانا عبد الحق ، ومولانا سيد سليمان ، ونقي ، وميرزا محمد سعيد ، ويشاركون في ذلك الأديب الكبير الشيخ محمد إكرام الذي يتوخى في دراساته وتحليله توجيه الإنتاج الفكري في الباكستان ليمرز البادئ والأهداف التي تكتنف هذه الدولة الناشئة بتوطيدها في ذلك الجزء من العالم الإسلامي

ويضاف إلى هؤلاء نفر من الجامعيين في معاهد « البنجاب » « والسند » و « دكا » و « لاهور » المنهكين في تزويد المكتبة الأوردية بالبحوث والدراسات العلمية في مختلف ألوان الثقافة الجامعية

ومدارس النقد الأدبي في الباكستان تدين بالاجتهاد لطائفة من الكتاب والشعراء الذين استهلوا حياتهم الأدبية بقرض الشعر أو إنشاء القالات ثم ما لبثوا أن انصرفوا عن ذلك إلى معالجة النقد لأنهم فشلوا في الإبداع الفني فلا كثرهم إنتاج فني مرموق المكانة ولكن لرغبتهم في تخصيص اجتهادهم لخدمة النهضة الثقافية في الباكستان وتوجيه المهووين من كتاب الجيل الجديد وشعرائه لبناء نهضة أدبية سليمة الدائم عميقة الفكر رقيقة في إبداعها الفني وقد أثمر هذا الجهد نتائج طيبة ، فاستطاع الشعر مثلا أن يتخلص من رخاوة مدرسة « طاغور » وابتمادها عن شؤون الساعة وانسياقها في مشاعر عواطف صلتها بالأدب الحى واهنة ضعيفة . ولم تقتصر هذه الثورة « الشعرية » على موضوع القصيد بل تعدته إلى فن العروض ، فانطلق الشعراء في استنباط بحور